مجلة الحكمة للدراسات الأدبية و اللغوية
Eissn :2600-6421 Issn : 2353-0464
المجلد 12 / العـدد: 02 (2024)، ص 66-75

قراءة في ديوان (تجليات طين الصمت) للشَّاعر الجزائري مشري بن خليفة

Reading in the Diwan (Tajaliyat tine el Samt) by the Algerian poet Meshri bin Khalifa

دباح بومدين [1]، جامعة الجزائر2

تاريخ الاستلام: 2024/05/08 تاريخ القبول: 2024/05/20 تاريخ النشر: 2024/06/07

ملخص:

يحتوي ديوان (تجليات طين الصَّمت) على خمسة تجليات، ويجمعها محور واحد وهو الحياة والموت، والمرأة هي المدخل إلى قصائد الدِّيوان لأنَّها الحياة في مواجهة الموت. وهذه المرأة تتجلّى بأشكالٍ مختلفة؛ فهي مرَّة صورة للوطن ومرة صورة للحبيبة وصورة الأرض ورمز للخصب. والشَّاعر لا يرى العالم إلَّا من خلال المرأة ولا يتفاعل مع الواقع والحياة إلَّا من خلالها، هي البداية والختام، هي الواقع والمثال، الحلم والحقيقة.

الكلمات المفتاحية : المراة الأرض الشعر

Abstract :

The Diwan (**Tajaliyat tine el Samt**) contains five manifestations, and is united by one axis, which is life and death, and the woman is the entrance to the poems of the Diwan because she is life in the face of death. This woman manifests herself in different forms: once an image of the homeland, once an image of the beloved, an image of the land and a symbol of fertility. The poet sees the world only through women and does not interact with reality and life except through them, it is the beginning and the end, it is reality and ideal, dream and

Keywords: Woman, Earth, poem.

المؤلف المرسل: الاسم الكامل،

1. مقدمة:

إنَّ الحبَّ هو مفتاح الدِّيوان ومفتاح الحياة ومفتاح الوطن، هو وسيلة الشَّاعر إلى الحياة وإلى الشَّعر، الحب وسيلة للمّ شمل الوطن وشتات الشَّاعر نفسه. ومن هنا، تتكرّر كلمة الحبّ والقلب والجسد، الأرض، الماء، الصَّمت، العطر، المطر؛ فالمرأة تتحوَّل عبر الرُّؤيا من حبيبة إلى أرض الوطن في قصيدة (صهيل الماء):

فجأة تدخلين سيّدتي في المرآة
كالسَّهم بين الموت والحياة
افتح نوافذي على شرفات المطر والاقحوان
تجيئين في رعشة الرُّوح نشيدا
تتسع الرُّؤيا
(...)
أسافر فيك أيّتها الأرض البكر
أنت البدايات والنّهايات
أنت الحرث والماء
عاشقا جئتك من صهيل الظّمأ
كأسي شفتاك وإثم الغواية (مشري ، 2021، ص: 5، 6.)

فليس هناك حدود بين المرأة والأرض، بين العشيقة والوطن. وفي قصيدة (السّلطانة) تصبح الحبيبة الحلم والوطن، يقول:

أنت نشيج الرّوح
وقصيدة العمر
أنت الوطن / الحلم
لما ضاع الوطن منّي (مشري ، 2021، ص: 8.)

المرأة هي الحلم والوطن؛ والشَّاعر إذ يبحث عن ذاته يبدأ من الحبّ إلى الوطن ومن المرأة الى الأرض، الأشياء تتحدّد من خلال الحبّ والعشق، نقطة الضّوء؛ المرأة هي البداية والنّهاية بدونها لا حلم ولا وطن، وفي هذا الصّدد يقول الشَّاعر مشري بن خليفة في قصيدة (المرآة):

آتيك من كلّ الجهات
والجسد مسيج بالخراب
سفر لا حدّ فيه للبدايات
وأنا أبحث عنّي في المرآة
أمشي إليك وحيدا
على أشواك الشّوق
نلتقي في نقطة ضوء
وفي وجع الرّؤيا.(مشري ، 2021، ص: 9، 10.)

الحب هو نقطة الضوء التي تجمع الشاعر بالحبيبة وبالوطن، وتحدّد مكان الشّاعر من الوطن والعالم من حوله؛ والمرأة هي الجسد والأرض والمطر وهي رمز الخصب والعطاء، وتداخل المرأة والوطن والذّات والعالم عنده يعود إلى منطلق صوفي هو وحدة الوجود؛ فالحب مفتاح الحقيقة والحق، من الحبّ الحسّي إلى حبّ المطلق، من الذّات الفردية إلى الذّات العليا. ومن هنا، بالضّبط، كانت عودته إلى جلال الدّين الرّومي الشّاعر الصّوفي؛ فهو يربط جسد المرأة بجسد الوطن وبالعالم، وهو يلملم شتات جسده من خلال المرأة ويصحو من خلال المرأة. فكأن الشّاعر غائب في طيّات الحياة والعالم فاقد لذاته وعقله وهو لا يجد ذاته إلّا من خلال الحبّ وهو يستعيد الذّات والوطن والعالم بالحبّ.

هذا، ونجد مفردات العنوان (تجلّيات الطّين الصّمت) في الدّيوان من أوّلِه إلى آخره، فالشّاعر يحاول أن يجمعَ هذه التّجليات المبثوثة في القصائد والّتي تعكس عنصر الطّين، عنصر التّراب. وهو هنا، يعبّر عن الأرض والوطن؛ أي الجانب الحسّي من الوطن بأشجاره وأنهاره وجباله؛ وبالمرأة كجسد تنجب الأبطال الّذين يدافعون عن هذا الوطن، ولكن الوطن روح أيضا؛ فهو تاريخ وحضارة وهوية ودين، والمرأة هي روح الوطن ورمز للحرية والحب والحنين. ومن هنا، فالتّراب كأرض وكجسد وجغرافيا لا ينفصل عن الجانب المعنوي من سيادة وحرية وحب. أمّا الصّمت في إضافته للطّين فيعكس معاناة الشّاعر في علاقته بالوطن والمرأة، هذا الصّمت الّذي يخيّم على الوطن من خلال الموت والدّم والخراب؛ إذ لا يمكن القضاء عليه إلّا بالحبّ والمودة. الحبّ هو

خلاص الوطن؛ وهذا يعود بنا إلى الجانب الصّوفي لدى الشّاعر مشري بن خليفة؛ فالحبّ هو وسيلة الخلاص وبناء الوطن. بالحبّ يعرف الإنسان وطنه ويعرف أخاه ويعرف العالم؛ ومن معرفة العالم تأتي معرفة الله؛ وهكذا، إذن، فإنّ الإنسان الّذي لا يعرف نفسه ويحبّ وطنه لا يعرف السّبيل إلى الله. فكلمتا (الصّمت) و(الطّين) تتكرّر في الدّيوان بشكل كبير. ومن هنا، يحسّ القارئ بأنّ شعر مشري بن خليفة ليس شعر موضوعات فحسب، وإنّما شعر رؤيا يدور حول محور عام هو الذّات في علاقتها بالوطن والمرأة، والوطن والمرأة ليسا شيئين منفصلين؛ فالمرأة ترمز للوطن والحبّ والحرية. ومن ثمّ فالحبّ يقود إلى الوطن والوطن يقود إلى الإنسان إلى المرأة عنوان الحبّ والمودة والتّرابط والأسرة والمجتمع.

إلى هنا، فإنّ ديوان (تجليات طين الصّمت) هو استقراء لحالة الوطن كما تتجلى للشّاعر، هو استكشاف لعنصر الطّين، التّراب كوطن وجغرافيا كأنهار وجبال وشمس وقمر وطيور، التّراب كعنصر للحياة. ولكن هذا الطّين مرتبط بالصّمت بالموت والدّمار والخراب. فالشّاعر، من هنا، يشير إلى أعداء الوطن في الدّاخل والخارج والّذين يسعون إلى القتل والموت، فيقول:

فتحوا علينا أبواب الرّيح
فانطفأت الشّمس
وتكسّرت عتبات السّماء
أصبحت الخيول في العتمة تصيح
دماء، دماء
ماء
من هنا مرّ الإخوة الأعداء
هيؤوا الموت رغيفا في الزّمن الهشيم
هو الموت يأتي من كلّ الجهات.(مشري ، 2021، ص: 11، 12.)

لقد جمع الشّاعر في العنوان بين الحياة والموت بين الطّين والصّمت، ولا سبيل إلى الحياة إلّا بالحبّ، المرأة هي المنقذ الّذي يلجأ إليه الشّاعر لينتشله من الموت. هذا الموت بعناصره المختلفة والّذي يحاول أن يحاصر عناصر الحياة ويخنقها. المرأة هي المبتدأ والمنتهى الّذي يزرع الحياة والأمل، ولا يمكن للوطن أن ينهض من الهلاك

والدّمار إلا من خلال الحبّ. والمرأة هي الوسيلة إلى المعرفة ايضا فالحبّ يؤدي إلى المعرفة. فكأن الشّاعر هنا لا يتعامل مع عناصر الوجود والحياة ولا يكتشفها إلّا من خلال المرأة/ الحبّ. العالم عالم غلف لا يمكن قراءته إلّا من خلال الحبّ ولا يمكن فتح مغاليقه إلّا من خلال الحبّ. ومن هنا، نجد الشّاعر يصيح بقوله:

أصيح على بابك: أحبك

أحبك، أحبك.(مشري ، 2021، ص: 6.)

ويقول في قصيدة أخرى:

أصيح على بابك: أهواك.

فكثيراً ما نجد الخطاب موجّها إلى المرأة على اعتبار أنَّها تمثِّل الآخر الذي يكمله والآخر الذي يرممه والآخر الذي يجمع شتاته، سواءٌ أكانت المرأة كجسد أو المرأة كبلد. المرأة في كلّ الأحوال هي الّتي تحافظ على وجود الشَّاعر وبدون المرأة لا يجد الشَّاعر ضالته، فهي الّتي تبعث فيه الحياة وتجعله صامدا في وجه الموت الّذي يحيط به من كلّ الجوانب. ومن ثمّ، فهو يلجأ إلى المرأة لتخلصه من الموت وعناصره من يأس وإحباط وخيبة وفشل. فالمرأة هي عنوان الحياة الّتي يتشبثّ به الشّاعر؛ فالمرأة هي الوطن والحياة والحبّ والقيّم الحيّة الّتي تزرع الأمل والبهجة والسّلام والأمن.

والشّاعر يرتكز في استقرائه لواقع الحياة في الوطن إلى خمس مقبوسات من جلال الدّين الرّومي وهي تعد بمثابة مداخل لاكتشاف الواقع. وهي مداخل صوفية تعبر عن ذات الشّاعر فأولها يركز على الألم الذي يعاني منه الشّاعر (كم عظيم المي كم هي ضعيفة نجواي)؛ فالألم هنا يبلغ درجة يحول فيها بين الشّاعر والبوح، الواقع أليم يعكس الموت والدّمار والهلاك الذي يعم الوطن، يقول:

كان الدّم في كلّ مكان

كان الدّم في صمت اللّيل

وصراخ النّهار

كان الدّم في أرصفة الشّوارع

وفي أوراق الجرائد.(مشري ، 2021، ص: 11.)

لقد أضعف الدّم قدرة الشّاعر على الكلام. ومن هنا، كان يستنجد بالمرأة بالحبّ حتَّى لا تغرقه موجة الموت، فالأم عنصر الحياة والحنان والدّفء، إلامَ رمز الوطن؟ يقول الشّاعر:

أنت وطني
والوطن هو الأرض
والأرض أنت.(مشري ، 2021، ص: 21.)

أمّا التّجلي الثّاني فهو: (أنا أشبه أنا وأحدنا يشبه الآخر) والآخر، هنا، هو الوطن الّذي تهدده الرّيح واللّيل والموت، إذ يقول:

الموت يتربص بنا
في الشّوارع وفي كلّ الأمكنه
رأيته يجلس على كرسي خوفنا
يلبس نظارة سوداء
لست أدري
هل هو يبصر أم أعمى
كان يتربص بنا في صمت
وكنّا نحن نلهو
ونضحك ونلعب.(مشري ، 2021، ص: 34.)

ويأتي التّجلي الثّالث وهو: (كنت أسمع اسمي ولا أرى نفسي كنت منشغلا بنفسي). فالشّاعر يتماهى مع عناصر العالم في وطنه يبحث فيها عن وجهه وملامحه يبحث عن نفسه، هو يسمع صداه واسمه لكنّه لا يرى نفسه، لقد أكلته الآلام والحوادث والوقائع المؤلمة، فغربته عن ذاته أبعدته عن أناه. لقد أضاع الموت خطوته فصار يبحث عن قدمه. ومن هنا، يتجه إلى المرأة الّتي تعيده الى ذاته فيرى العالم والوطن ويولد من جديد، يقول:

لست وحدك يا وطني
جرحك هو جرحي
وحبي يسكن جسدي وجسدك.(مشري ، 2021، ص: 50، 51.)

فالشاعر مشري بن خليفة يجد نفسه بعد أن كان شظايا في وطنه ويبصر وجهه في المرآة ومن هنا يقف إلى جانب وطنه في مواجهة اللّيل والموت. ومن هنا، يأتي التّجلي الرّابع لينتصر الشّاعر على جرحه ورؤيته للنّور في داخله، وهو ما يعكسه قول جلال الدّين الرّومي (لا تجزع لجرحك وإلّا فكيف للنّور أن يتسلّل إلى باطنك). لقد ولد الشّاعر من جرحه وها هو يطارد الضّوء، يسبق الرّيح ويعانق عناصر الطّبيعة كالفراشة والنّسمة، وهو يزرع صوته في كلّ مكان. لقد استطاع الشّاعر أن يلملم شتاته ويرسم خارطة للخلاص ويقود وطنه إلى الطريق، ولكن الطّريق طويل ويحتاج إلى الصّبر والتّطهر من الرّواسب القديمة، يقول:

ألملم شتاتي من جزن الطّرقات
أدس صوتي الغاضب في الفلوات
أدفن جثتي في المشكاة.(مشري ، 2021، ص: 66.)

ويختتم الشّاعر ديوانه بالتّجلي الخامس بقول جلال الدّين الرّومي: (ثمّة صوت لا يستخدم الكلمات .. فانصت)؛ فالشّاعر مطالب بأن ينصتَ إلى أصوات خفية، يقرأ كلمات وراء السّطور، يسمع للقلوب وملامح الوجوه والأشياء ليستبطن الذّات والمظاهر ليبحث عن المعنى، عن الحقيقة المبثوثة في كلّ ما يحيط به. العالم كلّه بنباته وحيوانه وجماده ينطق بلغته الخاصّة.

المراجع

مشري بن خليفة، تجليات طين الصمت، دار خيال للنشر والتوزيع، ط1، برج بوعريريج، الجزائر، 2021،